سلسلة لقاءات التفسير لشهر رمضان المبارك من عام ١٤٣٦هـ

اللقاء التاسع عشر: سورة النمل (٥٩-٦٩)

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

http://tafaregdroos.blogspot.com/#!/

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

http://www.muslimat.net/

- الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله. .

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، اللهم آمين.

نتدارس اليوم آيات من هذه السورة العظيمة سورة النمل التي ورد فيها أخبار عن الأنبياء وأقوامهم، وكيف أنّ قومًا استجابوا للآيات فانتفعوا، وأقوام لم تنتفع، وكان فرعون من أظهر النماذج التي عُرضت عليه الآيات فلم ينتفع، وكانت ملكة سبأ مِن أظهر الأقوام الذين عرضت عليهم الآيات فانتفعوا، وبعد ما عُرضت هذه الأحوال لبعض الأمم واستوفى مفهوم الاعتبار والإنذار فيما مضى وكيف تكون عواقب بعض الأمم التي كذّبت الرسل، وكيف عاقبة من آمن وقبل، أتى الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، خصوصًا وأنّ أحوال قومه أشبه أحوالًا بأحوال المكذّبين مِن الأمم السابقة.

ففي الآيات التي سبقت بيان الحال الذي يشبه حال قوم النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تصبير له صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من قومه.

وأيضًا تعليم في أن يقول بعد تلك القصص والمواعظ السالفة: الحمدلله، ولذلك أمر نبيه فقال: **{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}**.

وفي هذا شكر الله على كمال صفاته وعلى ظهور ذلك في كلّ شيء.

إذن تبيّن لنا هنا أنّ هذا أمْر للرسول صلى الله عليه وسلم بالحمد على ما احتوت عليه القصص السابقة من نجاة الرسل من العذاب الحال بقومهم، وكيف أعقبهم الله على صبرهم نصرًا ورفعة درجة، أُمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله عز وجل أنه أهلك الأعداء الظالمين.

بهذا فهمنا مناسبة الحمد هنا، وعرفنا أن إنشاء الحمد مرتبط بظهور آثار صفات الله عز وجل، قال الشيخ السعدي في ذلك: "**{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمْ مَا يُشْرِكُونَ}** أي: قل الحمد لله الذي يستحقّ كمال الحمد والمدح والثناء لكمال أوصافه وجميل معروفه وهِباته وعدله وحكمته في عقوبته المكذّبين وتعذيب الظالمين".

إذن كلما ظهر آثار كمال صفات الله، ثبت في قلوب الخلق المؤمنين استحقاق الله للحمد، ولذلك كل يوم يزيد علينا وتزيد العبر، كل يوم المفروض تكون كلمة (الحمدلله) منا في قراءتنا للفاتحة أو في أذكارنا يكون وراءها يقين جديد بما يظهر للعبد الناظر لكل شيء حوله بنظرة الاعتبار بما يظهر لهذا العبد من يقين، بما يظهر للعبد من كمال صفات لله، لكن هذا العبد المؤمن المتيقّن لابد أن يكون معتبر.

ولذلك مما ورد عن السلف أنهم كانوا يقولون: لا أرى شيئًا إذا خرجت من بيتي إلا ولي فيه عبرة ولله فيه حكمة.

وهكذا عين المعتبر نهاية هذا الاعتبار في كل وقت أن يقول الحمدلله الذي ظهر كمال صفاته في هذا الذي أراه.

وأُمر أيضًا أمرًا آخرًا: **{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ}** يعني قُل أيضًا سلام على عباده الذين اصطفى، والمقصود بالعباد الذين اصطفى الأنبياء.

ومعنى السلام سؤال الله عز وجل لهم السلامة والأمان، ومن أسمائه سبحانه وتعالى السلام، فهو سبحانه وتعالى سالم من كل عيب ونقص وصفات كماله سالمة من النقص، وأثر هذا من الله على الخلق أن يسلّمهم سبحانه وتعالى.

والسلام على العباد المصطفين يكون بأن يكون لهم ذكر حسنًا في الملأ الأعلى، وذكرًا حسنًا عند هؤلاء الخلق، فالذي يسلّم على المرسلين يسأل الله عز وجل أن يُكرم عباده هؤلاء الذين اصطفاهم، يكرمهم بالثناء عليهم في الملأ الأعلى وحسن الذكر ومثله في الأرض، فيكون لهؤلاء ذكرًا حسنًا عند أهل الإيمان.

قال الشيخ السعدي: "وسلّم أيضا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله من العالمين –كيف يكون ذلك؟– وذلك لرفع ذكرهم وتنويها بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب".

معناها أن من سلّم على الأنبياء والمرسلين الذين اصطفاهم الله عز وجل فقد جمع بين ثلاثة أمور:

اعتقاد أنهم صفوة الله من العالمين، وأنّ لهم منزلتهم العالية عند ربنا، ويطلب من الله الثناء عليهم في الملأ الأعلى فيرتفع شأنهم عند الله، ويرفع الله ذكرهم في هذه الدنيا.

إذن الله اصطفاهم، الله رفع ذكرهم في الملأ الأعلى، الله رفع ذكرهم عند الخلق.

وهذا لأي شيء؟ لكونهم سالمين من الشر والأدناس ولسلامة ما قالوه عن رب العالمين، يعني نسلم عليهم لأنهم سالمين من الشر، ونسلّم عليهم لسلامة ما قالوه عن الله عز وجل.

ثم ختمت الآية بقوله: **{آللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ}** وهنا يأتي الاستفهام، وهذا الاستفهام شروع في الاستدلال على حقيقة التوحيد، والاستفهام من أجل إلجائهم وإلزامهم بالإقرار بالحق، وفيه التنبيه على الخطأ.

وابتدأت هذه الآية بذكر الأمرين: ثناء على الله وثناء على المرسلين لما قالوه، ثم في مقابل ذلك كأنه يقال الله كامل الصفات خير أم ما يشركون؟ فالله ظهر كماله ودعا الأنبياء إلى كماله وهؤلاء الذين تشركون ما لهم إلا صفات النقص.

وفي ذلك دليل إجمالي كأنه يُراد الآن أن نبتدئ النظر، كأن السؤال من أجل ابتداء النظر **{آللَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ}**، يراد التفكير.

قال: "وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله الرب العظيم كامل الأوصاف عظيم الألطاف خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه" وسنرى بعد ذلك في الآيات كمال أوصافه وعظيم ألطافه، الله الذي له وصف الكمال خير "أم هذه الأصنام والأوثان التي عبدوها معه وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير فالله خير مما يشركون".

فكأننا نبحث في الأدلة العقلية التي تدلّ على أن الله يستحق أن يكون إلهنا، وهنا ننبّه وننوّه على أمْر: أنّ الألوهية وهي محبة الله وتعظيمه المستلزمة للعبودية إنما تأتي في أصلها من معرفة كمال الله وكمال أفعال الله، فإذا عرف الخلق ما لله من أسماء وصفات وعرفوا كيف ربّاهم بأفعاله، فطرتهم التي خلقها الله فيهم لا تقبل إلا أن يكون هو إلههم الذي يحبونه ويعظمونه.

ولذلك كما سمعتم في الآيات سيأتي خبر عن أفعال الله وسيأتي بعدها سؤال: **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}**، ولا يأتي جواب، لماذا؟ لأن الجواب تشهد به الفطر السوية.

الفطر السوية التي خلقها الله فيها من المسلمات وفيها المستحسنات وفيها من المستقبحات ما هو في غاية الوضوح، فإنّ الفطر السويّة تعلم أنّ كل فعل لابدّ له من فاعل، وأنّ عظمة الفعل يدلّ على عظمة الفاعل، وأنّ مَن فعل فهو كامل ومن لا يستطيع أن يفعل فهو ناقص، والفطرة السوية فيها من المستحسنات العجيبة التي تحكم حياة الخلق، فإنّ الخلق كلهم يحبّون من أحسن إليهم، والخلق كلهم يحبّون الكامل ويكرهون الناقص، والخلق كلهم لا يساوون بين مَن يفعل ومن لا يفعل، والخلق كلهم يستحسنون شُكر من أحسن، فلا يساوون بين مَن أحسن ومَن لم يحسن، ويعلمون أنه يجب عليهم شُكر من أحسن، ويرون أنّ شُكر من لم يحسن ظلم، وضع للشكر في غير مكانه.

هذا وغيرها من المسلّمات تجعل هذه الآيات التي نتدارسها الآن لا تحتاج إلى جواب؛ لأنّ كل سؤال مِن هذه الأسئلة إجابتها فطرية، لا تحتاج إلى إقامة أدلة أبدًا، الذي يسلم من الهوى ويسلم من تخليط الفطرة تسأله هذه الأسئلة تكون إجابتها واضحة في ذهنه.

قال: "ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعيّن أنه الإله المعبود وأن عبادته هي الحق وعبادة ما سواه هي الباطل".

إذن انظر إلى صفاته انظر إلى أفعاله لابد أن تعرف أنه محسن فتحبه، ولابد أن تعرف أنه عظيم فتعظّمه، وإذا أحببته وعظمته وعلمت أن لا أحد مثله لعظمته وجلاله وجماله ستجد نفسك لابد سيكون محبوبك الذي ترغب أن يرضا، وتخاف أن يسخط، وترجو أن تكون قريبًا منه، وترجو أن تكون من المذكورين بالخير عنده، وترجو أن تلقاه وهو راض عنك، فتسعى وراء مراضيه وتسأل عنها، فتكون عابدًا صادقًا نظر إلى أفعال ربه فرأى حسنها، ونظر إلى أفعال ربه فرأى عظمتها، وعلم أنه يستحق أن يكون إلهه الذي يحبه ويعظمه ويرجوه ويسأله ويخاف من سخطه.

ويأتي الآن استعراض لهذه الأفعال العظيمة كما نسمعها في الآيات، فتأتي معروضة علينا بصيغة السؤال ولازلنا نقول هذه الأسئلة لا إجابة عليها بسبب أن الفطرة السوية تجيب عليها، فيأتي أول سؤال بالخلق العظيم:

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}

هذه الحقيقة ثم يأتي السؤال: **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}**.

ونأتي نلاحظ هذه الآية العظيمة، خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق ثم تسمع أنها ذات بهجة، فتعلم كيف يعاملنا الله عز وجل وكيف أنه سبحانه وتعالى يخلق لنا مخلوقات تتحقق فيها المصالح العظيمة، فإن ما من مخلوق إلا والله يخلقه ووراءه المصالح.

ومن أعظم المصالح وراء هذه المخلوقات أن تكون اعتبارًا للمخلوقين وأن تكون انتفاعًا لهم، يعني بها ينتفعون وبها يعتبرون وأيضًا بها يستمتعون، فلننظر إلى كل المخلوقات فنجد حقيقة فيها الانتفاع وفيها الاعتبار وفيها الاستمتاع، تجتمع وتنفرد لكن في الحقيقة المتأمل لما يقلّبها حقًّا يجدها تجمع الثلاثة.

فلما نرى مثلًا السماء، نجد فيها الانتفاع (الشمس والقمر وكون الأرض مهادًا تسير فيها، وكون السماء تظلك سقف العالم، وكون فيها النجوم وتأتي في هذه السماء السحب وتجتمع وينزل المطر) هذا الانتفاع، والاعتبار حدِّث ولا حرج في كونها (مرفوعة بلا عمد، وفي عظمتها إن نظرنا إلى السماء، وفي انبساط الأرض وجبالها وسهولها، وانظر إلى الاستمتاع بالشروق والغروب، وانظر إلى الاستمتاع في ابتدار القمر، وانظر لصفحة السماء والنجوم فيها لآلئ تضيء، وترى كيف خُلقنا وخُلق لنا ما يقول لنا: **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}**، ما يجعلنا لابد أن نكون عابدين منكسرين ذليلين لرب العالمين.

ثم مثله **{وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}** وانظر للخلق كيف ينتفعون من الماء وكيف يعتبرون به وكيف يستمتعون به، ولحظات المطر لما تأمن أن لا تكون عذابًا وتراها نزلت ونزل معها الخير كيف هي لحظات استمتاع!

ومثلها الحدائق ذات بهجة.

فإذن ربنا الذي خلق هذه الأشياء وجعل فيها هذه المنافع، لابد أن يعترف الخالي من الشبهة الخالي من الهوى بعظمته.

ولما نرى هؤلاء القوم نجدهم قوم يعدلون، بمعنى أنهم يعدلون عن الحق إلى الباطل، وبمعنى أنهم يعدلون فيساوون غير الله بالله فيجعلونه عدله ومثيله، وكيف يكون عدله ومثيله والله وحده الذي خلق السماوات وأنزل الماء الذي ينبت هذا الشجر الذي فيه رِزْقنا، ولا أحد يظن أن هذا ينزل وقت ما يشاء وهذا ينبت وقت ما يشاء، فإن الله هو الذي ينشئ السحاب الثقال، وهو الذي يسبّب أسباب إنزال المطر، وهو الذي يسبّب أسباب إخراج الثمر، فهو خالق المسبِّبات، مزيل الموانع والعوارض، وهو الذي يقدِّر الأمور لتنفع الأسباب.

وهذا الأمر بتفكير بسيط واضح، قد ينزل الماء فيصبح سيلًا فيجري في الزرع والشجر ويقتل الخلق، فلو ما سبّب الله عز وجل سبب حفظ الخلق وإنزال المطر بقدر كان كل مطر نزل أزال الزرع بدلًا من أن ينبته، إذن خلق الأسباب وأزال الموانع، فلا تنظر كما ينظر قليلي الديانة ينظرون إلى الأسباب أنها تفعل.

وللنظر أيضًا في الإنبات وكيف **{فَأَنْبَتْنَا}** لكي يردّ هذا للمنبت الحقيقي، الله هو الذي أنبت، هذا فعله، كيف يكون هذا؟! هو الذي خلق الأسباب، والإنبات يعني تكوين النبات، فالذي خلق الأسباب إليه يعود حقيقة الفعل، ثم هذه الحدائق والبساتين التي فيها نخل وعنب، لأن حدائق معناها بستان فيه نخل وعنب، كيف يكون هذا نخل وهذا عنب!

وكيف مع الاختلاف الشديد بين النخل والعنب يكون أيضًا النخل نفسه بينه اختلاف والعنب نفسه بينه اختلاف!

ولتنظروا كيف جعل الله هذه الحدائق ذات بهجة، يعني منظر للناظر يبتهج به، ويقول الله عز وجل **{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}** ليس أمرًا في مُلْككم، فلا تظنوا أنكم حرثتم وبذرتم أنكم أصحابه! وهذا دليل غاية في الوضوح لكن مع وضوحه هؤلاء القوم يعبدون مع الله إله غيره!

يقول الشيخ السعدي: "أي: أمّن خلق السماوات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة والأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك.

{وَأَنزلَ لَكُمْ} أي: لأجلكم **{مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ}** أي: بساتين" والحدائق كما اتفقنا أنها البساتين التي يكون فيها عنب ونخل، غيرها ما يقال عنها حدائق في لغة العرب والله أعلم.

"**{ذَاتَ بَهْجَةٍ}** أي: حسن منظر من كثرة أشجارها وتنوعها وحسن ثمارها، **{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}** لولا منة الله عليكم بإنزال المطر.

{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ} فعل هذه الأفعال حتى يعبد معه ويشرك به؟!" إذن الفطرة تقول: من فعل ليس كمن لم يفعل **{ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ}**[1]، والفطرة تقول من كان خلقه عظيما كان هو عظيمًا، والفطرة تقول من أحسن يُحَبّ، فيقال: "**{بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}** به غيره ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي ومنزل الرزق".

وهذا أمْر غاية في الوضوح إلا أننا في يومنا هذا ابتلينا بمن تجرّأ على إنكار أن الله خالق كل شيء وجعل كل شيء مخلوق بنفسه أو بما يسمونه بنظرية الانفجار الكوني ويكفينا إزعاجًا في هذا الأمر أن نقول (انفجار)!، فإن ما نراه موجودًا في كل مكان موضوع بحكمة وإتقان لا نستطيع أن نقابله بكلمة (انفجار) أبدا، وبعض المهووسين كالعادة أتوا يستشهدون بقوله تعالى الذي فيه دلالة في نظرهم: **{السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}**[2]، وقالوا بالانفجار، وغير ذلك من اللف والدوران حول الأدلة والله يقول لنا في كتابه كما ندرس في هذه الآيات: **{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ}** كلها أفعال مسندة إلى الله، خلق السماوات والأرض، أنزل من السماء ماء..، كيف بعد هذا كله والأفعال مسندة إلى الله عز وجل ويأتي أحد من المسلمين فيقول ويقبل بنظرية الانفجار الكوني وأنه نظرية لا مانع منها وتدل على أن الله هكذا خلق الكون!

وهذا ما هو إلا جري وراء الخيال وضرْب من ضروب المحال أن تستطيع أن تجمع بين كلام الله وكلام المفتونين بدنياهم أصحاب الهوى، والحقيقة المحزن ليس أن يطرح هؤلاء الكفار الذين امتلأت قلوبهم شهوات هذا الكلام، لكن المحزن أن يتلقّفه أهل الإسلام فيتقبّلوه أو يبحثوا له عن استدلالات، والأفعال تامّة الوضوح في أنّ الله خالق كل شيء.

ثم تأتينا بعد هذه الآية العظيمة خبر آخر يتبيّن فيه أيضًا عظمة الله وجلاله وينتهي بنفس السؤال فيقول الله عز وجل: **{أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ}**

وهذا أيضًا انتقال من الاستدلال الذي فيه امتنان على الخلق بالأمور الأولى التي تناقشنا فيها إلى الاستدلال بدلائل قدرة الله وعلم الله وخلق الله وتدبير النظام، حتى أنه لا يطغى بعضها على بعض فيختلّ نظام الجميع، وهذه لازالت منّة، فانظر كيف جعل الأرض قرارًا.

يقول الشيخ السعدي: "أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع خير؟ أم الله الذي **{جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا}** يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى والحرث والبناء والذهاب والإياب".

قرارًا من كلمة قرّ إذا ثبت وسكن، ووصفت الأرض بأنها ذات قرار بمعنى أنها غير مضطربة، وهذا تدبير عجيب ولا يُدرك تمام هذا الصنع العجيب إلا من عرف كيف أن هذه الأرض أصلا سابحة في الهواء متحركة في كل لحظة، وهي مع ذلك عند أهلها

---

[1] النحل: ١٧
[2] الأنبياء:٣٠

قارة! لا يشعر أبدًا سكانها أبدا بحركتها في الفضاء، فهذا تدبير عجيب وفيه من الرحمة والنعمة ما فيه، ولولا قرارها كان الناس أصبحوا متزلزلين مضطربين وكان الناس لا يستطيعون لا حرث ولا بناء ولا ذهاب ولا إياب، وهو مع قرارها:

"**{وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا}** أي: جعل في خلال الأرض أنهارا ينتفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم".

مع كونها قرار شقّ فيها الأنهار فجعل خلالها، خلالها بمعنى تكون فيها فُرج ما بين أجزائها الأنهار تجري فيها، بمعنى الأرض يصبح فيها أخاديد فتجري الأنهار خلال الأرض، فلما تجري خلال الأرض فيصبح الماء قريب في متناول من يحتاجه.

"**{وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ}** أي: جبالا ترسيها وتثبتها لئلا تميد وتكون أوتادًا لها لئلا تضطرب".

والرواسي المقصود بها كما هو متبين هنا الجبال، وتأتي رواسي من الثبات، **{وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ}** يعني لأجلها، لفائدة الأرض، فهنا خبر عن حكمة الجبال، فهذه الكُرة التي تدور في الهواء تأتي الجبال تُرسيها، وهذا أمر يتّصل بسرعتها، وهو كلام كثير ذكره المتخصّصين لكن الذي يهمّنا هنا أننا نعرف الخبر عن رب العالمين.

ثم قال: "**{وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ}** البحر المالح والبحر العذب **{حَاجِزًا}**" وهذا من بديع الحكمة، بين البحر المالح والبحر العذب حاجز، وهو حاجز ليس كما نظنّ مبني بناء وإنما حاجز لا يُرى حاصل من دفْع كلا المائين، بمعنى أنه يحصل عدم اختلاط بسبب أمور جعلها الله عز وجل في المائين، وهم كما يعبّرون عنه بالثقل النسبي، يعني هذا الماء المالح ثقله غير الماء الحلو بسبب أنّ الله جعل في هذا العذوبة وفي هذا الملوحة، فالحاجز حاجز جعله الله عز وجل في خلقة هذا الماء بحيث أن الخلق يجدون الماء الحلو محفوظًا في داخل الماء المالح.

ومن يعرف من أهل الخليج الكبار في السن الذين يغوصون من أجل اللؤلؤ وخصوصًا في جهة البحرين يعرفون منابع للماء الحلو في داخل الخليج محفوظة من الماء المالح، لما يغوصون يشربون منها، وهذا من عجيب صنع الله! لا يدركه إلا من شغل نفسه بأفعال الله ورآها وقلّبها وجعلها آية دالة على الله.

"**{حَاجِزًا}** يمنع من اختلاطهما فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما بل جعل بينهما حاجزا من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار فيحصل منها مقاصدها ومصالحها" هذا ما رآه الشيخ السعدي في كون أن البحر منفصل عن النهر، لكن الظاهر والله أعلم ما هو متبيّن عند أهل الخبرة وما هو متبيّن علميًّا أنّ المياه الحلوة تكون في البحار المالحة، ويكون بينهم برزخ لا يبغيان، هذا لا يبغي هذا، وهذا لا يبغي على هذا، والناس ينتفعون بهذا وينتفعون بهذا.

ثم يأتي السؤال الإنكاري: **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}** وهذا يعيد علينا نفس الأمر هل من هؤلاء من فعل؟ هل من هؤلاء من يستحق أن تحبوه وتعظموه؟! لا إحسان أحسن ولا أفعال تدل على العظمة ولا تدبير لشيء فكيف يكون إلهكم!

"**{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}** فيشركون بالله تقليدًا لرؤوسهم وإلا فلو علموا حق العلم لم يشركوا به"

وهنا أمر غاية في الأهمية: أنّ انتقالات الشرك والبُعد عن طريق الله، إنما بسبب الجهل بدين الله، فلما نُفيت صفة العلم عن أكثر المشركين، عُلم أنه لا علم أتاهم من عند الله ولا نظر في دقائق هذه المصنوعات وخصائصها، والعلّة أنّ اعتياد مشاهدة الأمور العظيمة تُميت القلب تجاهها، لكن لما تأتيه هذه الدلائل وينظر لها أول مرة، تدلّه على بديع الصنع.

نحن كلنا نشترك في هذا في كون أنّ هذه الأدلة متكررة علينا، نقول القرآن نبّهنا إلى ذلك، فنقرأ القرآن ونستدلّ بما في الأكوان، ولابدّ أن نكرّر على نفسنا أنّ كل هذه الدلائل لا تخلو من نعمة من ورائها، فهي سيقت للاستدلال وسيقت للامتنان، يعني انظر لها كيف وراءها المنافع، وانظر لها كيف يكون وراءها الدليل على الله.

ثم يأتي هذا الشأن المهم وهو : **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ}** ونرى أين سيكونوا خلفاء؟! في الأرض.

ونأتي هنا إلى أمْر يشعر به كل أحد وهذا من تربية الله عز وجل لخلقه، فإنه سبحانه وتعالى لابد أن يمرّر على الخلق من الاضطرار قليل كان أو كثير فيسألون فيكشف عنهم، فبعدما أخبر الله عز وجل عن تدبيره في المخلوقات، ذكر تصريفه في أحوال الناس التي لا يخلو عنها أحد أبدا، لابد في شأن من شؤون حياتنا أن نكون دخلنا حالة من الاضطرار، ندخل الاضطرار فنحصل الخير، يأتينا السوء ثم نصرف على الحسن.

فنحن في هذه الأحوال حالة الاحتياج، وحال البؤس، وحال الانتفاع.

فالأولى الاحتياج: **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ}** المضطر صاحب الضرورة وهي الحالة المحوجة التي يكون فيها العبد في حالة عسرة حاجيات يحتاجها ولا تكون حياته إلا بها، وتتعسر هنا وتتعسر هنا، فالله يأتي بها بعزّته، إذن هذا المضطر حالته الاحتياج، والمضطر اضطرارًا يسيرًا أو عظيمًا يدخل فيه والله يقول: **{أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ}**، يعني يعطي كل امرئ سؤله، فإن المضطر إذا دعا لتحصيل ما أضطر إليه فلا يجيبه إلا الله، سواء كان فورًا أو بعد زمن، لكن كل حاجة في الحقيقة ما أصبحت حاجة إلا لما أُغلقت أبوابها، إذا توفرت فهي من عطية الله، وإذا لم تكن موجودة فلا يأتي بها إلا الله، فيضطر فيسأله فيعطيه الله.

وتأتينا الحالة الثانية حالة البؤس: **{وَيَكْشِفُ السُّوءَ}** ويرفعه، فكأنّ السوء غِشاء أو غطاء يحول دون المرء ودون الاهتداء للخلاص، لا يدري أين يذهب، فيأتي السوء يعميه، يصبح لا يدري أين يذهب! فالله يكشف السوء بمعنى يزيل هذا الحجاب، وغالبًا أنّ هذا السوء يتّصل بحفظ الدين أو بحفظ أو النفس أو العقل أو النسب أو المال، الأشياء التي يكون فيها إساءة.

إذن حالتين: يكون الإنسان في حال حاجة فيكون مضطرًا فيجيبه الله، ويكون الإنسان في حال بؤس فيكشف الله عنه السوء.

ثم تأتي الحالة الثالثة التي هي حالة الانتفاع: **{وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ}** فيعقب بعضكم بعضًا، الآباء يلحقهم الأبناء والأجيال بعد الأجيال، تعمّرون وتنتفعون.

وهنا إشارة إلى الملك، فتكونوا مالكين في الأرض **{وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ}** يعني مالكين في الأرض تنتفعون بها، فيورث بعضكم بعضًا، فكل حيّ له خلف ومن بعده سلف، وهذه مرتبة أعلى من المرتبتين اللتين مضت.

كأننا نقول: هكذا الله عز وجل يدبّر عباده وهكذا يشهد على كماله، يُشهد الخلق كلهم على الكمال، فأتت هذه الآية تُشير إلى مراتب جلب النفع ودفع الضر، فبدأنا بالاحتياجات فهو يجيب المضطر، ثم البؤس الله عز وجل يكشف السوء، ثم أن يملّك الخلق ويحصل لهم مراداتهم في الأرض.

وخُتمت هذه الآية بقوله: **{قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ}** والتذكّر ضد النسيان، بمعنى أن يستحضر الإنسان دائمًا هذا المعلوم، وهذا التذكّر يفيد استمرار أثر الآية، والذين لا يتذكرون ولا يتدبرون معناه أنهم يغفلون.

فقال الشيخ السعدي: "أي: هل يجيب المضطرب الذي أقلقته الكروب وتعسر عليه المطلوب واضطر للخلاص مما هو فيه إلا الله وحده؟

ومن يكشف السوء أي: البلاء والشر والنقمة إلا الله وحده؟

ومن يجعلكم خلفاء الأرض يمكنكم منها ويمد لكم بالرزق ويوصل إليكم نعمه وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ويأتي بقوم بعدكم أإله مع الله يفعل هذه الأفعال؟"

هذه كلها أحوال الناس في الدنيا، حاجات دائمًا يضطرون إليها، يكون عقيم مضطر إلى ولد، يكون جائع مضطر إلى طعام، يكون عاري مضطر إلى لباس، فيسأل الله، ثم يأتي الأسوأ من ذلك لما يكون في حال من البؤس فيجيبه، ثم يأتي بعد ذلك الانتفاع العام ..

قال: "لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسّهم الضرّ دعوا الله مخلصين له الدين" يعني هذا الضر والسوء يكشفه عنهم وهم في البحر فيردّهم.

"لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، **{قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ}** أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمور التي إذا تذكرتموها ادَّكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم فلذلك ما ارعويتم ولا اهتديتم".

ستأتي الآيات بعد ذلك بنفس طريقة العرض سؤال يسألوهم والإجابة تكون في قلوبهم مستقرة **{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}**..

ولضيق الوقت ننتقل إلى ختام هذا المقطع لنرى ما السبب الذي يجعلهم لا ينتفعون من هذا كله فنصل عند آية ٦٦ : **{بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}**.

وهذه مراحل خطيرة يمرّ بها مَن يخاطَب بالحق.

"قال: **{بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ}** أي: بل ضعف، وقل ولم يكن يقينا، ولا علما واصلا إلى القلب وهذا أقل وأدنى درجة للعلم ضعفه ووهاؤه، بل ليس عندهم علم قوي ولا ضعيف".

حالهم الذي سبّب لهم هذا قال الله عز وجل: **{بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ}** بمعنى الحقيقة التي أوصلتهم لترك الحق والإعراض عنه وعدم العناية به هو موقفهم من الآخرة، فهم لا يشعرون أيان يبعثون ولا ينتفعون بالآيات التي تدلّهم على ربّهم العظيم، فهم تدارك علمهم، يعني ضعف علمهم، والتدارك أيضًا هنا بمعنى التلاحق، فهم خلف عن سلف، ضعف علمهم في الآخرة، وقلّد بعضهم بعض عن غير بصيرة ولا نظر، ولذلك أنكروا البعث، فالسبب في ضعف علمهم لأنهم يأخذون علمهم عن الآخرة من أسلافهم الجهال، فإذا كان هذا حالهم أكيد أنّ علمهم سيضعف ويضعف، وهذا ما يوجهه أبناءنا في أنّ الحقائق اليقينية يضعف وجودها في قلوبهم لأنهم أخذوا من ضعفاء، فنحن ضعفاء وهم أخذوا منا الحقائق فازدادوا ضعفًا!

والحق أننا بحاجة إلى قوة في العلم ليكونوا هم أهل قوة في العلم، لكن أن يتدارك علم الخلف من علم السلف ويدرك القليل الذي عنده وهو ضعيف فيضعف يومًا بعد يوم.

ثم يزيد الأمر خطورة: **{بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا}** معناها ليس فقط تقليد الخلف ما لقنه السلف بل زاد على ذلك أنهم بسبب هذا الضعف أصبح عندهم شك، وهذا ما نراه اليوم آباء وأمهات ضعفاء في الدين، ضعفاء في الاستعداد للآخرة، ضعفاء في تصوّر الحقائق التي سيقبلون عليها، نقلوا هذا الضعف لأبنائهم، وأبنائهم انتقلوا من الضعف إلى الشك!

"وإنما **{هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا}** أي: من الآخرة، والشك زال به العلم لأن العلم بجميع مراتبه لا يجامع الشك.

{بَلْ هُمْ مِنْهَا} أي: من الآخرة **{عَمُونَ}** قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال بل أنكروها واستبعدوها".

وهذا الكلام نقوله ونحن نرى من أبناء المسلمين المصلين الصائمين من يشكّ في الآخرة ويصل حدّهم لإنكار وجود الله عز وجل وإنكار لقاء الله!

هذه الآيات الحقيقة تحتاج منا جلسة أخرى للتأمّل فيها ومناقشتها، لكن يكفينا الإشارة وإن لم نستطيع أن ندرك كل الخير الذي فيها، ونلفت نظرنا ونظر أبناءنا إلى التأمّل في آيات الله، فإنها هادية للفطرة السوية تملأ القلب إيمانًا لمن انتفع بها.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

انتهى اللقاء بفضل الله..